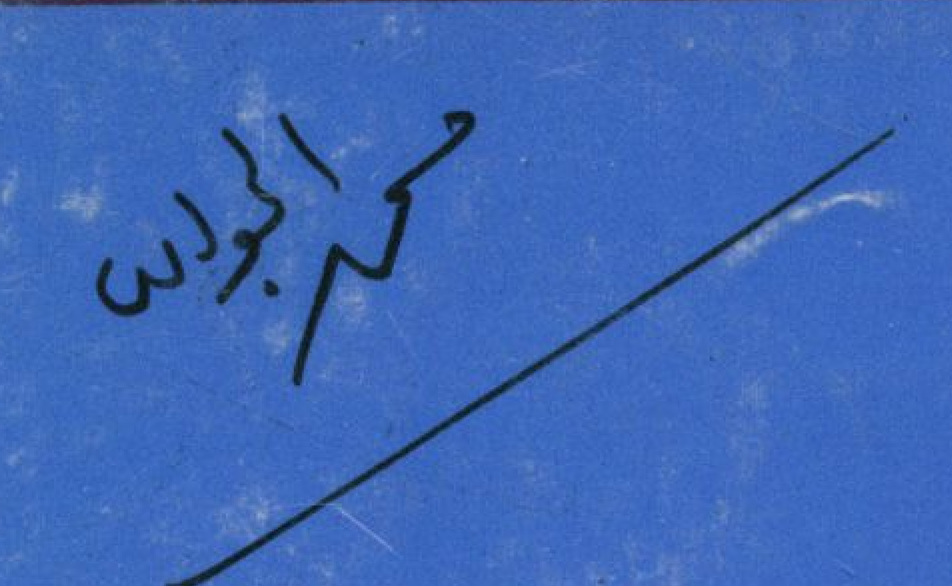
قصص
عربية



جلسة ليست عائلية

إبراهيم الحسينى



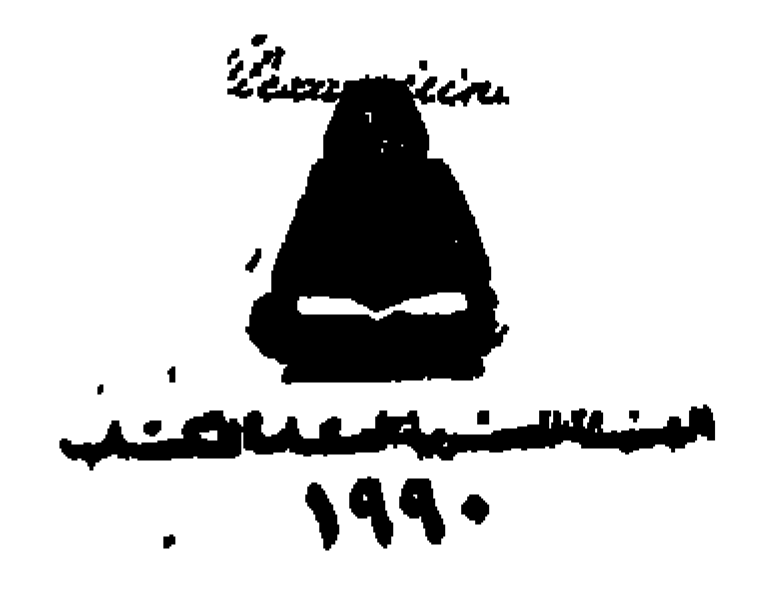

قصص عربية

اخراج فني

اسماء محمد

جلسة ليست عائلية

تأليف
إبراهيم الحسيني



الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٩٠

الــى :

فاطمة عبد الرحمن

حبيبتى :

سمراء الوادى .

ابراهيم ..

القـــوس

نشرت فى الكرمل ١٩٨٤

عند جامع البكرى ، الذى يقع على أطراف القرية ، فى الوقت الذى بين المغرب والعشاء ، كان الأولاد ـ الصبيان والبنات ـ يلعبون ألعاب الليل لا النهار ، يثيرون التراب والغبار خلف أقدامهم ، وهم يركضون هنا وهناك ، يختبئون فرادى فى الغيطان ـ وسط كثافة الظلمة ، ونقنقة الضفادع ، وهسيس المزارع ـ وخلف أسوار الدور الكبيرة ، التى يقطنها كبار القوم وأسياد القرية .

نهضت « سعدية » من مرقدها . ذهبت الى دورة المياه . تأملت جسدها الذى جف وتيبس ، وكاد يتشقق . لمحت طيف « حمدان » الغائب فى بلاد النـاس البعيدة . وكانت تشـعر بالبرد والقشعريرة .

قالت « سعدية » لنفسها :

ـ يارب ، ياواهب الأرزاق ، رجع لى جوزى الغايب فى بلاد الناس البعيدة .

بالت ، ثم اغتسلت ، وعادت الى مرقـدها مرة أخرى ، وكانت لاتزال تشعر بالبرد والقشعريرة •

تسلل الولد « زكريا » اقترب من البنت « عفـاف » • لف ذراعيه حول خصرها ، خلف سور جنينة الحاج « متولى عبد الحق » • همس فى أذنها بكلمـات قليلة ، انطلقا بعدها الى كوخ مهجور ، فى قراريط « حمدان بن عبد الرحيم » التى بارت وتشققت •

شق ضوء السيارة ــ المحملة بالشنط والكراتين ــ جدار الظلمة السميك •

سمعت « سعدية » ، وهى فى مرقدها ، طرقات سريعـة ومتلاحقة ، فنهضت ، فتحت المزلاج ، وهى تتثاءب • تأملت وجه الغريب الذى قال ، خافضا رأسه :

ــ لقد سقط حمدان هناك تحت البلدوزر •

وقـال :

ــ وكانت تلك حقائبه وأوراقه •

وناولها رزمة من الأوراق المـالية ، وغاب •

بيضة الصباح والمساء

نشرت فى القاهرة ١٩٨٥

عندما يدخل شعاع الشمس من النافذة ، يغمر الحجرة ضوء النهار ، يطن فى اذنى الولد سمير لغط وهمهمات وصياح الباعة فى الحارة ، يتقلب فى فراشه بالطول والعرض ، مستمتعا بالدفء والخدر والسرير خال من اخته وأمه وأبيه ، الذين ينهضون مع أذان الفجر وتكبيرة الصلاة ، ويكون سمير فى انتظار أمه تاتى ويدها مبللة بالماء ، لتدفع الغطاء عن وجهه ، تهزه وتقبل جبينه ، وتقول : قوم يا سمير، الشمس طلعت من بدرى .

يظل يئن يتلوى يراوغ يتملص ، الى أن يشعر بنبراتها ، وقد فاض منها الكيل ، تحتد وتقوى متوعدة ومنذرة ، يكف والبكاء يخنقه ، ويجثم على أنفاسه ، يقاوم رغبته فى النوم والكسل ، يستجمع قواه لمواجهة لسعة البرد ووخز الهواء ، يشب بجذعه متعلقا برقبتها ، لتمنحه بعض الدفء وابتسامة تزيل التجهم والصرامة وآثار الغضب على وجهها ، يقبلها ويتوسل اليها : « أن تدعه ينام اليوم .. واليوم فقط » .

تداهمه السبورة والحصـيرة وأحذيـة وشباشب الأولاد وعصاة الشيخ مسعود ، الذى يراه ـ كما يرى الجان والعفاريت فى حواديت وحكايات أمه التى تملأه بالرعب والخوف فى أنصاف الليالى ـ بقرون وحوافر وأنياب حادة طويلة ومدببة •

تحمله بين ذراعيها ، تسير به الى الحوش الترابى ، تضع رأسه تحت حنفية المياه ، وهو يرفس الهواء بقدميه ، ينشج ويصرخ ويضربها بيديه على صدرها ، يحاول التملص والانفلات من احكام ذراعيها حول جسمه •

الولد سمير تظل البيضة ، طوال أيام الأسبوع ، تداعبه ، تراوده ، تأتى اليه فى الأحلام : على هيئة ثمـار كثيفة تتدلى من فروع الشـجر ، أو تلال كبيرة لا تنضب ، ويظـل هو ، فى خيالاته ، ينزع القشر عن البيضـة ، يتحسس الملمس الناعم من الداخل ، يديرها ويضغط عليها فى كفه ، بينما لعابه يسيل ، وريقه يجرى ، يعد يحسب : السبت الأحد الاثنين ، بدءا من ليلة الجمعة الى صباح الخميس ، ينتظر مرور الأيام وتتابعها بفارغ الصبر ، وطعم البيضـة الحلو الشهى اللذيذ ، يتعلق بذاكرته ، يلازم شفتيه ، ولا يفارق لسانه

لهذا يكون الولد سمير ، يوم الخميس بالذات ، فى انتظار أمه ، قلقا متوجسا ، يتحرق شـوقا الى سـماع صـوتها ، وابتسامة مريرة ، تشق شفتيها ، عندما تقول :

ـ خليك نايم انت ياخويا وأنا رايحة ألم البيض •

ينتفض وينفض اللحاف بعيدا عن جسمه ، دون خوف من لسعة البرد وخز الهواء ومياه الحنفية وخيزرانه الشيخ مسعود، يهبط السرير شاكيا باكيا ، بملابسه الداخلية المتسخة ، يجرى يصعد السلم بساقيه المقوستين محـاذرا ، يستند بكفه الصغيرة على الجدار •

وعند عشة الفراخ : يكور جسـده الصغير ، وينفذ من الفتحة الضيقة ـ وقلبه يرجف ـ يبحث فى التراب والريش والغبار ، عن البيضـة التى يخبئها فى عبه ، الى آن يغيب عند الجدار وطلمبة المياه ، فى الحارة ، عن عيون أمه التى تودعه بقبلة على جبينه ، والحزن يرقد فى قلبها بلادا وبلاد •

ذات ليلة ، والقمر هـلال ، وكانوا يجلسـون فى حوش الدار ، قال :

فتلقى صفعة قويـة من أمه ، التى ظلت تبـكى طول الليل ، لكنه ظهيرة اليوم التالى ، وجد بيضة مسلوقة ترقد بين طيات الرغيف ، عندما هم يتناول طعام الغداء فى الكتاب •

عندما تغيب شمس الخميس ، وتسـقط خلف النقطـة القديمة ، يعود الولد سمير ، رغم كثافة الشوق ، على قدميه من الكتاب •

وفى الكتاب ينسى الولد سمير ، فى هـذا اليوم بالذات ، الدنيـا وما عليهـا ، يغيب تماما عن المكان ، لا يرى الشيخ أو السبورة أو الأولاد ، يسرح ببصره ، يركز بعقله وأفكاره ، هناك عند الجدار ، حيث دفن البيضـة بجواره فى الصباح ، يتأمل شكلها ، حجمها ، ملمسها ، مذاقها ، الى أن يأذن لهم الشيخ بالانصراف ، فينطلق مسرعا ، ويكون الشيخ قد ضربه ، فى هذا اليوم بالذات ، على كفيه أو اليته مرات ومرات .

وفى الحـارة ، يلقى نظرة على الجـدار ، ملؤها الحنين والرغبة واللذة ثم يقترب منه بحـذر وتردد شديدين ، يتلفت حواليه ، يختلس البصر يمينا ويسارا ، ويعبث بأصـابع قدميه فى التراب .

لكن الولد سـمير لم يكن بمقـدوره أن يرى أمـه ، كل يوم خميس ، وهى تستبدل البيضـة التى يدفنها فى التراب كى تنضج على نار الشمس الحاميـة . ولم يكن بمقدوره ، أيضا ، أن يرى أمه المختفية الآن وراء الباب ، تتأمله بفرحـة ومرارة ، وهو ينبش فى التراب ، باحثا عن البيضـة التى تكون قد نضجت واستوت ، فيأخذها فى عبه ـ هنا بجوار القلب ـ ويجرى يأكلها ويرمى قشرها بعيدا عن أنظار الآخرين .

ثم يرفع الترباس ، ويتسـلل داخـلا من فتحـة الباب الموارب .

لسان النار

نشرت فى القاهرة ١٩٨٥

ـ ١ ـ

صحت فاطمة من النوم مفزوعة ، والدم الساخن يتدفق لزجا بين اكتناز وبضاضة فخذيها .

وكانت الحجرة معتمة .

بحذر انسلخت من بين الأخوة المبعثرين حواليها ، ورجت جسم أمها المفرطح رجا قويا ، وقالت :

ـ أمه .. انت يا أمه .. الله .. ما تصحى يا وليه .

وكانت من بعيد تسمع عواء كلاب ضالة .

حينذاك كانت سيارة دفن الموتى ، وسط طابور من السيارات ، تدخل القرية بجثة الحاج مندور .

صرخت فاطمة ، ولطمت خديها ، ورددت مع النسوة أغنيات الموت : رأفت ورث البيت والغيط والفرن ، وغدا يأتى ، يحملنى وسط الطبول والزغاريد والدفوف الى البيت العالى فى مصر ، الله يرحمك يا عمى ، « ويبشبش » الطوبة تحت راسك .

ـ ٢ ـ

تلقت فاطمة ، بفرح ، لحم الضحية من البيت العالى فى مصر ، أشعلت نار « الكانون » ، تحت المياه الى أن غلت ، مضت بها الى القاعة ، أغلقت الباب وراءها ، ودعكت كفيها « بالجلسرين » من الزجاجة التى تخفيها فى صندوق أشيائها الصغير ، غسلت أسنانها بالحمرة ، وتأملت حبات المياه على جسدها الذى حكته بالليفة والصابونة والحجر ، ارتدت ملابس العيد الجديدة والملونة ، قرصت خديها ، ورمت شعرها ضفيرتين خلف ظهرها ، وسارت الى مدافن القرية .

وهناك وقفت ، دون نسوان العائلة ، تحت شجرة عجوز ، تتأمله خلف شواهد القبور ، يرشف الشاى ، يدخن الجوزة ، ويتجاذب أطراف الحديث مع الرجال فوق الحصير ، يوزع الرحمة والصدقة : الفطائر والتمر والقروش ، على الشيوخ الذين يتناوبون تلاوة القرآن ، وأولاد القبور ، الى أن امتطى سيارته ، وغاب خلف سحابة من غبار الطريق .

- ٣ -

فى الصباح تخرج فاطمة ، تلف البلاد والقرى والكفور ، تحاصرها ألف عين من اليمين وألف عين من الشمال ، ترش الطوب بالمياه ، تضرب الرمل بالأسمنت والزلط ، تصعد السقالات ، وهى تحمل قوالب الطوب فوق كتفها .

وعندما تتوارى الشمس ، ويعلو صوت المؤذن ، من جامع البكرى ، لصلاة المغرب ، تعود : ترمى ورقة المعسل فى حجر أبيها ، تدس القروش فى يد أمها ، تأكل ، تشرب ، تتجشأ ، وتنام .

والليلة لا تدرى فاطمة لم استيقظت على صوت أبيها يقول لأمها :

....

ـ عليك بالأحجبة والتعاويذ .

هكذا قالت أم اسماعيل عرافة القرية .

فدخلت فاطمة بناء مالت جدرانه وتشققت ، وفضت الورقة المطوية التى سحبتها من صدرها ، تنهدت ودارت تضيء وتثبت الشموع حول مقام الشيخ درويش .

— ٤ —

أطلت فاطمة من الباب الخشبى الموارب ، تمسح الطريق التى خوت من المـارة بعد صـلاة العشـاء ، رشقت الكلب الأسود الكبير ، المقعى أمام الدار ، بنظرة مستفزة ، وذهبت لفت يديهـا حافة سور طينى ، وهى تضغط صـدرها ضغطا رفيقا ، وتتلفت ، تنظر الطريق وقتامة الليل ، لمت ثوبها بين فخذيها ، ونطت ، ركبت السـور تؤرجح ساقيها فى انسجام ودفء ولذة راجفة •

الخــروج

- ١ -

لم تكن دور بهنتيم ، فقط ، التى ضاقت على عبد التواب ، الدنيا التى لا يعلم لها بداية من نهاية ، تخنقه ، وتجثم على صدره ، يود لو يطلق دموعه من محبسها ، يقلب أفكاره على كل الوجوه ، وشعور بالمرارة والوحدة واليأس ، يسيطر عليه ، ويكاد ينفجر .

« الى متى تظل هكذا يا عبد التواب ، من غير شغلة ، لا لك غيط ، ولا عندك بهيمة ، وسايب سعدية تكنس وتغسل وتعجن وتخبز فى الدور ، لتعود اليك آخر النهار بالرغيفين وقطعة الجبن القريش وصندوق الدخان ، وأنت فالح تنتقل من هذه المصطبة لتلك المندرة ، تقوم من مع هؤلاء ، لتقعد مع هؤلاء ، مع الكبار والعيال الصغار ، الذين يضحكون عليك ، ويسخرون منك ، وحتى النسوان يا عبد التواب ، تحشر نفسك

بينهن ، وكل من أحبت تقول كلمة هكذا أو كذلك ، لا يحلو لها أن تقولها الا وأنت معهن » .

غادر عبد التواب مصطبة جامع بهتيم ، وهو يحلف بايسانات المسلمين : أنه سوف يطلع سعدية على المشروع الذى رسمه ورتبه فى ذهنه ، منذ شهور بعيدة .

وكانت الشمس تغرب ، والليل يطبق من السماء والأرض ، والمساء يحل بهوائه الذى يرطب الجو وينعشه ..

فى تلك الليلة : ضاجع عبد التواب سعدية مرات ومرات .

وفى الفجر : خلعت سعدية القرط الذهبى ، وفى صمت ناولته الى زوجها ، وبكت .

فى الصباح : لم تخرج سعدية الى الخدمة فى الدور .

– ٢ –

لم يكن عبد النواب يبحث عن شيء ، حين عثر على هياكل وعظام موتى عزبة المرجوشى ، تلك القبيلة التى تنتقل من مكان الى آخر ، وراء أكل الماعز والأغنام ، الى أن جاءت ، ذات يوم شديد الحرارة ، وحطت هنا ، حيث المرعى والعشب الوافر ، فاستبدلوا خيامهم بتلك الدور الطينية ، قصيرة الأبواب والأسقف .

كان عبد التواب يجىء بأكوام التراب ، فوق حمار زوج خالته مليم ، الى حافة بركة العفيف ، حيث كانت سعدية مشمرة الجلباب ، تقف فى المياه الآسنة ، التى تصل ركبتيها ، تقتلع جذور البوص والصبار والنباتات الطفيلية ، لتردم البقعة التى وقع اختيار عبد التواب عليها .

عصارى ذلك اليوم ، فوجىء أهالى بهتيم ، وهم أمام الدور ، يحتسون الشاى والبن ، ويدخنون الجوزة ، بأهالى عزبة المرجوشى ، يقتحمون بهتيم بالنبابيت والسكاكين ، يطالبون

برأس عبد التواب ، الذى فر الى البرارى والأحراش ، يحلفون بالله العظيم ، والغضب يتطاير من عيونهم : ألا يعودوا عزبتهم الا ومعهم عظـــام موتاهم ، أو يدفنون هنا بجوارهم • فاستقبلهم الشيخ موافى ، عمدة بهتيم ، الذى بصق على الأرض ، وقال لأحد خفرائه :

ـ تقب وتغطس ، وقبل هـــذه البصقة ما تجف ، تجىء بالولد عبد التواب أمامى •

وعندما ألقىَ الخفراء عبد التواب مكبل اليدين والساقين بالحبال ، فى دوار العمدة ، شقت سعدية الصفوف ، وقالت :

ـ لم يكن عبـــد التواب يعرف هـــذه العظـــام لانس أو لجن يا حضرة العمدة •

فأشار الشيخ موافى على كبيرهم ، بشراء ثلاثة مقابر ، من المقابر التى بناها صدقة للفقراء والمساكين •

فى صباح اليوم التالى : أثار أهـــالى عزبة المرجوشى ، عاصفة من الغبار خلف أقدامهم ، وهم يتوجهون ، فى صمت ، بالنعوش الى مدافن بهتيم ، ويتذكرون تلك الأيام ، التى كان عليهم ، أن يحملوا عظـــام موتاهم أثناء السير والترحال •

حينذاك أدرك صبى من تلك القبيلة ، أن مصيرهم قد ارتبط الى الأبد ببهتيم •

- ٣ -

الركون الى غرزة عبد التواب ، التى قامت بعد جهد تسعة أيام ، من الطين والبوص والقش ، صار عادة بعض رجال بهتيم وشبانها ، يلتقون فى الشتاء داخلها ، وفى الصيف تفرش سعدية الأجولة الفارغة على حافة البركة ، يتبادلون المشورة فى أمور حياتهم ومزارعهم ، وينتقلون الى الفضايح والهمسات والنكات ، ثم يلعبون الدومينو والورق على الشاى والبن الذى يتناولونه من يد سعدية ، أول امرأة من بهتيم تتردد على عاصمة البلاد ، لشراء الشاى والسكر والبن والكبايات والصوانى وقطع غيار الوابور ، وهى تروح وتجىء ، تهز ردفيها ، وتأتى بالألفاظ والعبارات والاشارات والايماءات ومصمصات الشفاه والتنهدات المثيرة للمشاعر والرغبات الضارية التى تحرق أجسامهم ، وتظل متقدة بأذهانهم وأنوفهم وابدانهم حتى وهم فى أحضان زوجاتهم ، فى أخذها

كالوحوش الكواسر ، بين الحقول المترامية ، أو وسط الغاب الكثيف على حافة مستنقع من تلك المستنقعات.

بينما سعدية لا تبالي بنظرات هؤلاء الرجال التي تكاد تفترسها ، وتعبث بجسمها وأعضائها ، في حين أنها تشم حريق أجسادهم ، وتشعر بنظراتهم ، وما تنطوي عليها من رغبات شحمية ولحمية ، وكانت قادرة دائما ، على رد أي واحد ، يتجاوز الكلام والهمس والغمز واللمز ، بنظرة قاسية وصارمة الا أنها حين داهمها حماد بن الحاج والي ، في أمسية صيفية عطرة ، بنظراته المستوحشة ، خافت أن تفضحها ، وتعرى سرها ، الذي لم تقف له للآن على أثر ، تنفذ الى تلك الرغبة وذلك النداء ، الذي يراودها ، ويؤرق نومها ، ويجعلها تتقلب فوق رمال ساخنة ، ويلح عليها ، بأن رجلا ما سيأتي بسطوته الغاشمة، وقدرته على سلب ارادتها ، ليقلب حياتها رأسا على عقب ، وهي تقاوم ، بكل جهدها ، بأقصى ما لديها من قوة وحيلة تقاوم ، تردد المحرمات والمحللات وتقاوم ، تستعين بالله والأنبياء والأولياء وتقاوم ، تتلو الفاتحة والصمدية وتقاوم ، تنهمك في العمل والطعام ومضاجعة عبد التواب وتقاوم ، الى أن فاجأها حماد ، يقتحم خلوتها بالغرزة ، ساعة القيلولة ، وهي تعاني رجفة الحلم وأشواقه ، يجثو عند قدميها ، ويتوسل اليها : أن ترضى عنه ، وتمنحه نفسها كالآخرين .

— ٤ —

ـ سعدية يا بنت البلغة !!

فوجئت بهتيم بحدث هز أوتادها ، كسر حالة الرتابة ، وصار البؤرة التى يتجمعون ويفترقون عندها، أعطـاهم مادة جديدة للسهر والحمـاس فى القيـل والقـال :

ـ كل هذا يطلع من بنت الكلاب هذه !!

أيقظ تاريخ بهتيم السرى فى الجنس والهوى ، يحـاولون بقدر ما تغوص الذاكرة ، أن يجدوا حدثا مشابها من قريب أو بعيد دون جدوى .

ـ امرأة فاجرة !!

ـ هذا الفجر من علامات الساعة !!

ويضربون كفا بكف ، من كان يصدق أن سعدية تقدم على هذه الفضيحة ، التى تضـع رءوسهم فى الطين والوحل ، وكيف يرفعون عيونهم أمام أهالى القرى والعزب المجـاورة ، يتأملون

نساءهم بعيون تمتلىء بالتوجس والغضب ، الذى نزل على أجسادهن صفعات وركلات .

ــ زينهم .

ــ الغريب .

ــ يا بنت الزانية .

وكادت تنشب معركة بالنبابيت والفئوس والحجارة بين أهالى بهتيم والعربجية الذين انقطعوا سبعة أيام ، عن المرور من طريق بهتيم الى عاصمة البلاد ، الى أن جاء وفد من عمد وشيوخ القرى والعزب المجاورة بوالد زينهم ، الذى أهدر دم ولده ، الذى جاء فجر الأربعاء ، ليشرب الشاى ، ويدخن جوزة الصباح ، لكنه بنظرة آمرة قوية ونفاذة ، انقض على سعدية وأشار اليها ، وهى لا تملك ازاءه أى قدر من المقاومة ، أن تذهب وتعود حالا بصرة ملابسها .

بعد لحظات كانت سعدية تلف ذراعيها حول زينهم ، الذى يقود الكارو صوب عاصمة البلاد .

وعند أول خص فى زمام ابراهيم بك ركن الكارو .

وسارت سعدية ، والنهار يشقشق ، تسبقه الى هناك .

حينذاك شعر الناس فى الجانب الآخر من مصر ، برجفة خفيفة فى الأرض .

ـ ٥ ـ

كان الأوان أوان ذرة ، أوراقه تخشخش ، كأنه أنين نور يحتضر . الدار خالية لا يتردد غير الريح وصفير القبور ونباح الكلاب .

هكذا وجد عبد التواب نفسه وحيدا ، يغمره تيار من الحزن ، ينبت الطحالب وديدان الأرض والخفافيش بأحشائه ، نزع ورقة السوليفان ، من فص الأفيون ، ودسه تحت لسانه ، وهو قابع القرفصاء ، يتأمل سعدية تروح وتجىء ، تلقى كلمة هنا ، وكلمة هناك .

وكما شهد هذا الطريق ، الذى يمتد خلف بهتيم ، ضيقا ، ملتويا ، لا يرتاده الا اللصوص وقطاع الطرق ، خروج عبد التواب ، فى تلك الليلة حزينا ، ليبحث عن سعدية ، فى المدن والقرى والكفور والموالد والأذكار والأسواق ، سبع سنوات لف خلالها البلاد من الشمال للجنوب .

شهد أيضا عودته نظيفا لامعا حليقـا ، تصحبه صفيـة الغازية ، التى أقامت بهتيم وأقعدتها ، برقصها وزينتها ، وهى تجر ولدها أنور ، الذى كان يثأثىء بالكلام ، والذى سيكون له شأن عظيم فى استقبال رجـال الحـكم وتجـارة المخدرات والكيوف .

جلسة ليست عائلية

نشرت فى أدب ونقد ١٩٨٥

تقيأت زوجتى دما . قال الطبيب : قرحة فى المعدة قالت أخت زوجتى : لم تعتد بعد على الأكل الطيب والكثير . قالت زوجتى : ما عندى طاقة على احتمال هـذه الكمية من الدهون واللحوم والخضار والفاكهـة . قلت : لا تقرب الطعـام الا فى الليل ، أحس أنها تخشاه أو تكرهه . قالت زوجتى : أحس أنه ليس لى . قالت أخت زوجتى : هذا بيت زوجك ، وبيت زوجك بيتك . قالت زوجتى : أحس أنى غريبة عنه . قلت : حاولت معهـا ، لكنهـا لا تستجيب ، ولا تفهم ذلك . قالت اخت زوجتى : طول عمرهـا تهوى الفقر ، بعيد عنك . قالت أمى : هى لا تريد نسيان أصلها . قالت أختى : دائما تكلمنى عن أيام كانت عاملة فى المصنع . قالت زوجتى : كنـا ننتظر أول كل شهر لنأكل اللحم .

قالت أخت زوجتى : نفدت بجلدك من كل هـذا . قالت زوجتى : كنا نجتمع ، كأننا فى عرس ، حولها فى المساء ، لكننا

نظل يومين مصابين بالاسهال . قالت أخت زوجتى : صرنا نأكل اللحم ، من الجمعيـــة ، هذه الأيام ، مرتين كل شهر . قالت زوجتى : كيف حال أمى . قالت أخت زوجتى : بخير ، لكن الأورام تنتقل فى جسمها . قلت : حبيبتى « قـــال الطبيب » لا تجعلى شـــيئا يثير أعصـــابك . قالت زوجتى : ماذا يقول الطبيب ؟ . قالت أخت زوجتى : لابد من بتر الثدى الآخر ، هكذا يقول . قلت : هى بخير ، وغـــدا سآتى لك بها . قالت زوجتى : هل وافقت ادارة المصنع على نفقات العمليـــة ؟ . قلت : كل شىء يتدبر ، انتبهى أنت لصحتك . قالت أمى : عليكم بمتابعة الأوراق . قالت أخت زوجتى : أبى غارق فى الروم ليل نهار . قالت زوجتى : ألا زال أخونا يذهب الى الجامعـــة ، ولا يبالى . قالت أخت زوجتى : لقد تخرج ، واختار العمـــل هنالك فى أقصى الصعيد ، ولا نراه الا قليلا . قلت : سوف أدير لك قرص الموسيقى . قالت زوجتى : حبيبى ألا يحزنك أن أطوح هذا الكوب من النافذة . قالت أخت زوجتى : حمقاء ، وربما تكون مجنونة . قلت : حبيبتى ، كل شىء هنالك . قالت أمى : انه تحفة ، اشتراه جدك لبفتح شهيته للطعام . قالت أختى : دعيه لى ، أنا فى حاجة اليه . قالت زوجتى : أريد تفتيته . قالت أخت زوجتى : بنت كلب لا تستحق هـــذه العيشة . قلت : سوف أدير لك موسيقى شوبان . قالت زوجتى : هل تسأل عنى

صديقاتى فى المصنع ؟ قالت أخت زوجتى : أثناء فترات الراحة ، تفهمين طبعا ، فى دورات المياه . قالت أمى : شــغل المصــانع يجعل المرأة خشنة المظهر والملمس . قالت زوجتى : هل يذكروننى بالخير ؟ . قالت أخت زوجتى : يحسدونك على ما أنت فيه . قالت زوجتى : أشعر بالبرد . قالت أمى : كل النوافذ فى البيت مغلقة . قالت زوجتى : حبيبى ، لو سمحت ، أدر لى موسيقى شوبان ، وقبلنى قبل أن تمضى .

...... وانصرفت .

الوحــــل

نشرت فى أدب ونقد ١٩٨٦

فى الظلام كمن ، يترقبهم ، ويتربص بهم ، وينتظر اللحظة المواتيـة ، وهو يحوم بعينيه حولهم .

وكانـوا يقتربون ، يتبـادلون الحـديث ، وهم يتحركون بخطاهم الوئيدة ، ويتضاحكون ، والرضـا والأمـان يبدوان عليهم ، رغم الفقر والشـقاء اللذين يعانون منهما .

فجأة تسلل خلفهم ، وفى لحظة خاطفة ، سحب السكين من عبه ، طعن به أحدهم ، وجرى .

الطعنة جاءت أسفل القلب ، عميقة ، ونافذة ، ترنح وارتعش وأحس ببرد وقشعريرة .

ـ لبل حالك يا ولدى سوف يطول .

وتدفق الدم .

غامت الدنيا ، واختلطت الأشياء : الميـدان والسـيارات والمقاهى والمحـلات والأضـواء والناس والشجر فسقط على الأرض ، يتأوه . جاء الأهل والأصدقاء والأحبة ، تتعالى أصوات النساء ، وهمهمات الرجال الغاضبة ، شقوا طريقا وسط الجماهير المحتشدة حوله ، ورفعوا عنه الجرائد .

كان راقدا ، ولا زال الدم ينزف .

تساءل أخوه : من الذى ضربه ؟

ــ كان ملثمــا .

ــ بل يرتدى قناعا .

ــ لم نر وجهه ، ضربه ، وجرى .

قال أبوه غاضبا : نحن نعرفه .

وكان صديقه قد عاد بالرجــال ذوى الياقات البيضــاء ، الذين حملوه على « نقالة » داخل ســيارة الاسعاف ، وسمحوا لأمه وأخته وحبيبته بالركوب معهم .

ومضى الرجال فى سيارة أجرة الى نقطة البوليس .

ميــاه الترعة جفت ، والنجم الذى فى الســماء هوى ، والطريق ضيق ، مملوء بالانحناءات ، والصمت الذى يلفه ، يقطعه بين الحين والحين ، نباح الكلاب ونقيق الضفادع وعواء الذئاب وصــوت انهمار المطر وحديث الرجال .

ــ لم يلاحقه دائما ؟

ــ هل تسأل عن السبب ؟ !

ــ المهم الآن أن يعيش .

ويطبق الصمت ، يجثم على الصـــدور ، لتنبت فى رأس سائق السيارة هواجس وظنون •

« هل هذا طريق نقطة البوليس ، لم لا يكون هؤلاء قطاع طرق ، خدعوك ، وأتوابك هنا ، فى هــذه الســـكة المقطوعة ، ليسلبوا ايراد اليوم ، ويستولوا على سيارتك ، عد من هنا ، وانج برقبتك » وركن على يمين الطريق ، مط شفتيه ، وزام ، وقـــال :

لا أستطيع أن أمضى معكم أبعد من هنا !!

وساروا على أقدامهم ، والطريق يتلوى ويضيق ويوحـــل ويعتم ، وهم حائرون خائفون ، ينتزعون سيقانهم من الطين ، والمطر يزداد غزارة ، وتيـــارات الهواء شـــديدة ، تنفذ الى عظامهم ، ترجفهم ، وتهز عيدان القصب ، والذرة ، فتســـمع خشخشة الزرع كأنها أنين •

ـ تعبنا يا أبى وضللنا الطريق •

ـ نرجع ، ونأتى فى الصباح •

ـ يا أخى قطعنا أكثر من نصف المسافة •

ـ لن يحمينا منه يا ولدى الا البوليس •

ومر وقت طويل ، بينما قواهم تخور ، واليأس يتســـلل

ويتضخم ويكاد يستبد بنفوسهم ، لولا أن أشــار أحــدهم ، وصــاح :

ـ ها هو المبنى هناك .

وعبروا قنطرة خشبية .

والمبنى ضخم وعتيق ، أمامه رجل وامرأة وطفل ، أخفى وجهه بجلباب أبيه مفزوعا ، عندما رآهم يقبلون عليه .

ـ هل هذا مبنى النقطة ؟

ـ نعم ، ما الذى جاء بكم هنا ؟

ـ جئنا نبلغ ونقدم شكوى .

ـ اجلسوا ، نحن مثلكم ، وسوف نشعل لكم النار .

ـ نريد أن ننهى الأمر ، ونعود .

ـ الباب موصد ، وعلينا الانتظار .

ـ كيف ، ومتى يفتحونه ؟

ـ لا ندرى ، نحن هنا منذ زمن بعيد .

ـ الا يفتحون أبوابهم عندما يطلع النهار ؟

ـ هنا لا تسطع شمس ، ولا يطلع نهار .

ولازال الدم فى سيارة الاسعاف ينزف .

الحـــدود

نشرت فى الثقافة الجديدة ١٩٨٦

ـ الليل الليل هز يا ميمون .

ـ . . . .

ـ أرقص يا ميمون .

ـ . . . .

ـ تحرك يا ميمون ، اقفز .

ـ . . . .

ـ نوم العازب يا ميمون ، هيا .

ـ مولاى ، عليك أن تعيد رأسك ، من حجر الخليفة أولا .

خاصمتك الدنيا ، وفر ميمون يا مروان .

أطبق الصمت ، وهجعت المدينة فى عز النهار .

ثم مضى ، وارب الباب .

وكان الطقس رديئا : الغيوم رمادية ، وفروع الشجر ـ خلف النوافذ ـ جافة وعارية ، والخريف يلفظ أنفاسه الأخيرة .

وأغلق باب الحجرة وراءه .

الليل الطويل قادم ، الجدران رطبـة ، والبرد ينفذ فى الجسد حتى النخاع .

اشعل فحم المدفـأة .

الليل الليل هز يا ميمون .

وتشخلل الشخاليل ، تلعب أصابع مروان بدربة ومهارة ، تضرب جلد الدف المشدود ...

يخرج النغم ...

ويتجمع فى حوارى المدينـة الصبيان والبنات والرجـال والنساء .

أرقص يا ميمون ، يرقص . اقفز يا ميمون . يقفز . وسلام المبيه . يعظم . وعجين الفلاحة يا ميمون . يضرب الهواء بساقيه الأماميتين . ونوم العازب يا ميمون . يقرفص .

جسـم مروان القـادة والحراس فى حجرة الاجتماعـات الواسعة :

ــ أصدقونى القول ، ألا زال رأسى فوق رقبتى ؟

ــ مولاى ، ان وجهك يضىء الأرض .

ــ وقامتك شامخة .

ــ وعيناك وسط رأسك .

فكتب مروان على لوحة من ماء .

« نحن لازلنا نملك أدوات تحرير .... »

ونام فى تلك الليلة هادئا مطمئنا .

تسلق ميمون الأسوار والأشجار ، تقلب على عشب أخضر ، مشذب ، ورائحته طيبة ، قفز هنا وهناك ، يقطف ثمار الموز والعنب والبرقوق ، أكلها ، وصعد الى شرفة القصر ، وانتظر مروان الى أن انتهى من امتطاء احدى جواريه ودخل عليه .

ـ أهلا ميمون ، قرصك الجوع ، فعدت .

ـ جئت اصدقك القول يا مولاى .

ـ القادة أكدوا لى كذبك وافتراءك .

ـ خدعوك يا مروان ، وما عليك الا تنظر فى عينى جاريتك .

وفى الفجر : أطاح السياف برقبتها ؛ لأن عيونها تكذب .

رفع الحراس والخدم المرايا ورخام القصر ، لكن مروان فوجىء بظله على الجدران .

طار الخنجر ، يشق الهواء ، أسرع من حمامة ، ومر فوق رقبة مروان ، ليستقر فى بطن أحد جنوده ، فشهق ، وجحظت عيناه ، تحية لمولاه ، الذى كلم نفسه :

« الحمد لله اننى نزعت رأسى عن جسدى ، منذ زمن

طويل ، والا أصابنى هـذا الخنجر الملعون فى مقتـل ، ليأت مروان ، ويرى » •

— ميمون ، الخليفة يريدك ، وأنت الآن فى قبضتى ، أستطيع أن آمر ، فتجوع ، وتتعوى ، بل وتموت أيضا •

— لكنى لن أرقص هناك يا مروان •

— أنا مروان يا ميمون ، لحم أكتافك من خيرى •

— نعـم ، كنت أرقص وألعب ، وتجمـع أنت النقود يا مولاى •

تأمل مروان أظافره التى طالت وتقوست ، وشعره الذى تكاثف ، وغطى جسده ، وقرأ بعناية شديدة الخطـاب الأخير من الخليفة •

« نحن فى شوق ، ولم نعد نحتمل ، الى رقص ميمون وألعابه التى شوقتنا اليها » النـاس أنكرونى ، والذكريات هجرتنى ، والأردية سقطت عن جسدى ، القادة والحراس يديرون ظهورهم ، ورعاياى يشيرون :

— عورتك يا مولاى •

ولف السلسلة حول رقبته •

صهل الحصان ، وقفز عاليا ، دفع البـاب بقدميـه ، ورمح •

جــرح عاشــق

نشرت فى ابداع ١٩٨٥

يابني : اذا رايت حربا ،
جبانها يجرؤ ، وشجاعها يجبن ،
وخسيس المحتد ،
يتحكم فيها ، بكريم المحتد ،
فر منهـا ، وترقب ،
تر : ان فى الأمر ، خيانة

((قس بن ساعده))

اصطدمت أنوف الأصـدقاء بالرائحـة الكحولية ، عندما دخلوا من باب الحانة ، واحدا تلو الآخر . الدخان تلويه ثعبانيا تلك الزفرات الملتاعة ، من الأفواه وفتحات الأنوف ، المصحوبة بارتخاء الرأس ، أو القاء الرأس على القفا . الرواد قاعدون ، جماعات حول المناضـد يتجرعون البيرة والروم ، وجماعات أخرى يتحلقون دوائر فارغة من المناضد ، وسط كل جماعة ، شاب ، مقوس الظهر ، يدور بالجوزة ، ويهز المصفاة ، الممتلئة

بقطع الفحم الصغيرة ، حينا متوهجة برتقالية ، وحمراء ارجوانية، حينـــا •

صار ســير الأصدقاء ، فى الطرقـــة ، مشبوبا بالالتفات المتوجس ، والرغبة المتقدة • صــوب الرواد أطراف عيونهم ، المنكسرة على صفحة السوائل المحمرة ، الى ذلك الشخص ، المختل سيره وتوازنه ، الصادر من بين ساقيه ، صوت له رنة حديدية خفيفة •

لمــا جاءت المرضـــة فى الثوب الأبيض ، المحبوك حول خصرها ، الموضح خطوط وثنيات وبروز اللحم الطرى ، الملفوف فى ليونة متماســكة ، كنت قد أفقت من الغيبوبــة الطويلة ، ولم أبصر الرمال الممتدة بامتداد البصر فى سيناء ، ولم أبصر الدخان القاتم الزرقة المنبثق من النيران الحمراء التى تطــاول السماء ، ولم أبصر الطـــائرات تعلو وتسفل ملقيـــة القنابل الثقيلة حينا ، وحينا تقذف الجنود بالمظــلات ، ولم أبصر الجند فى تحفزهم المنبجس من الهلع الشــديد ، ولم أسمع الطلقات المصفرة المتداخلة المتشابكة ، والانفجــارات المدوية المصحوبة بصرخات وأنات بشرية • وجدت جسمى ضمن كميـــة من لحم البشر الممزق ، على الأسرة المخضبة بالدماء ، تئن ، تصرخ ، تتأوه ، وتتلوى ، تحسست جسمى ، فلم أجد ساقى اليسرى •

قلت : ماذا حدث هناك فى القلب ؟

قالت الممرضة : جاء بك أمس الهلال الأحمر .

قلت : ماذا حدث هناك فى القلب ؟

لمحت طيفا يجعد ـ هكذا ـ الشمس فوق وجهها .

قالت : صنعتم شيئا عظيما .. ولكن

استشعرت دموعى الخضراء تنبت على أطراف أحشائى ،
وتذكرت عندما قال القائد : صابر لن يذهب معكم الليلة .

قلت : أنت لم تبصر محجوب .

قال : صابر لن يذهب معكم الليلة .

قلت : أنت لم تبصر رأسه معلقا فى فرع الشجرة .

وقلت : ولم تبصر جذعه المتدلى تهزه رياح حزينة وغاضبة .

وقلت : ولم تبصر بطنه المشقوق وأحشاءه المتدلية .

وقلت : ولم تبصر أمعاءه مسحوبة وملتفة حول جذع الشجرة .

وقلت : ولم تبصر ساقيه وذراعيه وأعضائه أسفل الشجرة .

وقلت : ولم تبصر الأرض مرتجفة .

قال : صابر لن يذهب معكم الليلة ، وهذا أمر .

وانتظرت أكلم الله ، أشكو له الذين استولوا على أرضنا ،

بينما كانت أصوات الحرب تعلو وتتطاول ، فجاءت الطائرات ، تحجب السماء ، وتوالى القصف .

قعد الأصدقاء الثلاثة فى صدر الباب . استراح أحمد بظهره على الكرسى ، وهو يرمى ابتسامة تجاه الفتاة الواقفة ، تبدو طويلة خلف النصبة . تأمل صابر الرجل العجوز الذى يحتسى الروم بيدين مرتعشتين ، مال على أذن عبد الوهاب وقال :

ــ لن أنهض من هنا الليلة ، أريد أن أذوب فى قعر الكئوس .

هند الآن ممددة على السرير الناعم الملمس ، ورأساهما فوق الوسادة متجاوران ، تلفح أنفاسها العطرة الدافئة وجهه ، وربما تقلبت ويجىء فخذها فوق فخذه ، وربما تقلب هو ، وجاءت ساقه فوق فخذها ، الليلة .. ليلة العيد ، وأكيد تناولا لحمة العيد معا ، وأضاءا فى الغرفة ضوءا خافتا ، وصعدا السرير .

كنا نقف ، ندفن موتانا ، ونحمل جرحانا ، ونعاود المسير ، لكن فى عيون كل منا تساؤل :

ــ كيف ولماذا يأتى الرصاص أحيانا من الخلف ؟

عندما سمعت نساء الحارة يقلن ، وضوء الشمس ينحسر :

ـ هند جاء لها عريس .

جريت الى أمي شاكيا باكيا ، أغلقت أمي نافذة حجرتنا ، وقالت : يملك دنانير .. دنانير .

قال عبد الوهاب : هـذا عام .

قلت : يملك دنانير وينعم مع هند بالحياة .

قـال : الجامعة بعد أيام .

قلت : لم تعد عندي رغبة .

وسحبت شهادة الاعدادية من المدرسة الثانوية ، وصرت عندما تمت أوراقي واكتملت ، أرتـدى الزى العسـكرى ، والحذاء الأسود الطويل الرقبة .

قال الجرسون : ليلة ورد باذن الله يا أفندية .

ووضـع الكبايات وأطبـاق المزة وزجاجات البيرة ، التى يتصاعد من فوهاتها زبد ناصـع البياض . أشار عبد الوهاب لبائع السوداني :

وقال : هات بشلن سوداني .

قضم أحمد قطعة من الخيار المملح ، هز رأسه يمينا ويسارا . سمع صابر مواء قطة ، انحنى ، مد يده أسفل الكرسى ، قفزت القطة من بين جهازه الحديدى وساقه الباقية على قيد الحياة . ومضى عبد الوهاب يصب البيرة فى الأكواب . ركب أحمد ساقا فوق الأخرى ، وهو يرفع الكوب الى فمه ، ويعرى الفتاة بنظراته ، انتثرت البيرة من فم عبد الوهاب ، وهو يحاول كتم الضحكة التى فاجأته ، خبطه بأطراف أصابعه على مؤخرة رأسه ،

وقال : لم تكف عن هذه العادات ؟

اختلج فم صابر ببسمة مريرة ،

وقال : من كان يصدق أن نلتقى الليلة .

وقف أحمد نصف وقفة ، اتسعت عيناه ،

وقال : البنت حلوة قوى ، بص أنت وهو ، وجهها ، ولا صدرها ، تطير العقل يا غجر .

فى الميدان ، فى الصباح ، كنت أقف بين زملاء الدراسة ، أراقب الطريق ، فى انتظار هند ، التى كانت تخرج مزهرة من الضباب الكثيف ، تتلفت ، تتجول عيناها ، تفتش فى الوجوه ، الى أن تلتقى نظراتنا ، تتبادل تحية الشفاة ، وتذهب ، تقف بين زميلاتها ، وتظل تبادلنى اختلاس البصر ، الى أن يأتى الأتوبيس

بدمدمته العالية ، وموتوره اللاهث ، فأركض مع الراكضين ، وأقفز بسرعة داخله ، ونادرا ما كنت أتمكن من الحصـــول على أحد الكراسى خاليا .

وتشق هنـــد طريقا بين الركاب ، منضغطة ، محشـــورة ومراوغة ، كسمكة ، تقعد بجوارى ، تتلامس أنفاسنا وأجسامنا وأصابعنا ونظرات عيوننا ، ويدور الحديث بيننا مختلطا بحفيف الأنفـــاس ، فى همس ناعم لين ، منسابا بلا التواء ، فى قنوات تلك اللحظات الكبيرة .

فرحـــان والبحـــر

نشرت فى الموقف العربى ١٩٨٦

على الشط كان عاريا ، الا ما يستر عوراته .
ملابسه المتسخة بالعرق المتجمد ، وآثار الدقيق والمازوت ، كانت معلقة هناك ، بين الأغصان ، فى شجرة التوت هذه .

السماء كانت تزهر وتتفتح بضوء النهار . كان يشعر بالندى والرطوبة ولسعة البرد . قال فرحان لنفسه : لما أشوف الأول الميه ساقعة ولا لأه .

فرحان صغير فى السن ، عمره من عمر الأطفال فى الابتدائية ، قصير ونحيل قد عيدان القطن ، لونه بني محروق ، عضمه ناشف ومحمص ، من نار الفرن ووهج الشمس .

قعد بمؤخرته على حشائش البر المبتلة .
البحر الكبير يشق بلدنا نصين : بيوت المدينة الواطية - هناك - فى منحدر أمام عينيه ، السيارات تجرى على الطريق المسفلت خلف ظهره ، تضرب الهواء ، يصفر بين أوراق الشجر .

تأمل المياه تجرى فى البحر الكبير ، موجات وراء موجات ، اقترب منها ببصره ، المياه تحت ضباب الفجر ، مخضرة بالأعشاب وطحالب الشط . ارتجفت أطرافه ومفاصله ، شعر بالخوف الذى ظل يتردد بداخله طوال الطريق .

البحر غويط يا فرحان ، أنت لا تعرف ، ولم تتعلم العوم ، جنية البحر التى كثيرا ما سمعت عنها فى الحواديت والحكايات القديمة ، ربما تخرج اليك من القاع ، لن تتركك فى حالك يا فرحان ، سوف تجرك هناك بعيدا عن الشط ، فى الغويط ، تلف شعرها الطويل حول جسمك ، تشدك وتغوص بك للقاع . عند الجان والعفاريت ، تخنقك ، وتشرب دمك ، تشويك على النار ، تقدمك وليمة لأهاليها ، يأكلونك ويشربون دمك ، ويدقون الطبول حواليك ليالى وليالى ، ويمكن تتجوزك يا فرحان ، تبنى لك بيتا كبيرا ، وتنام على سرير ، تأتى لك بما تشتهيه وتحبه : الملابس الزاهية الملونة ، الكفتة السخنة أسياخ وأسياخ ، البرتقال أبو صرة أقفاص وأقفاص ، على أن تظل تشبعها طول الليل والنهار .

جذب نفسا طويلا ، مكنه من تجميع قدر من الشجاعة والجرأة . نخلة عالية ومثمرة تلوح فى الأفق . شم رائحة الصباح والخضرة ونباتات الأرض . وقال لنفسه : عم امام الفران ، قال : ما عفريت يابنى الا بنى آدم .

وقال لما سألته امبارح بالليل عن جنية البحر : يابنى هذا كلام فارغ • دلى قدمه اليمنى ، بحذر ، تلامس المياه •

« يا ماء كن دفئا وسلاما على فرحان » •

من زمان وفرحان نفسه يستحم ، ينزل وسط المياه ، يشعر بها تتلألأ على جسمه ، ويقول لنفسه : الميه حلوة ومنعشة تزيل الأوساخ والروائح الكريهة •

شهق فرحان وانتفض • المياه كانت باردة • نهض يتأمل المياه بغيظ وكراهية ، قرر أن يذهب ، يصعد الشجرة ،ويهبط بملابسه ، يرتديها ، ويحمل أقفاص العيش الخاوية ، ويعود رأسا الى الفرن • فى دارنا التى بناها جدى بالطين والقش ، فى البلاد البعيدة ، كانت أمى ، مساء كل يوم جمعة ، تخلط الماء البارد ، بالماء الساخن ، وتسكبه على جسمى ، بعد أن يفتر ، من « ساسى لراسى » ، وتظل تدعكنى بالليفة والصابونة والحجر ، حتى تزيل التراب والعرق ويحمر جلدى ، تجففنى ، تحملنى على ذراعيها الى ظهر الفرن ، تلفنى باللحاف ، تهدهدنى ، وتربت على ظهرى ، الى أن أروح فى النوم ، وأنا أشعر بالسعادة والهدوء والسلام •

لكن ما قالته المرأة الجميلة والرجل العجوز ، فى الأتوبيس ، عن القرف والوساخة والنتانة والصياعة والرائحة الكريهة ، ضربت فى رأسه ، وترددت فى أعماقه •

رأى طيف امرأة بلا ملامح •

قالوا : أمك اتجوزت •

كان صغيرا •• وبكى •

وكان أبوه قد مات فى الحرب •

اندفس فى قطار الصعيد ، تحت أقدام الرجال ، وجاء الى عمه ، فى المدينة ، الذى جره الى مخبز الحى ، وتركه هنالك ، يتعلم العجين والخبز [illegible] الفرن •

وفى مخزن [illegible] فرحان ويتكوم مقرفصا بين أجوله الدقيق الفارغة والمليانة ، والحشرات التى تطير وتزحف •

وفى مخزن [illegible] وطويله ألف ديل وديل •

وفى الفجر يسألون : من يحمل الخبز الى البياع ؟

يرد الوكيل : فرحان •

تمتد الأيدى ، تهزه ، وتوقظه من نومه •

ارتكز فرحان بركبتيه ، ومال بجذعه ، يحاول أن يمسك السمك الأخضر فى قبضته ، والسمك يراوغه ، ويفلت من بين أصابعه •

نهض ، انحنى على الأرض ، التقط طوبة صغيرة ، طوحها بيده ، على مرمى قريب من البصر ، بولك ، صنعت دوامات كثيرة وضيقة ، أخذت تتسع وتتسع حتى تلاشت •

الغـــائب

نشرت فى القاهرة ١٩٨٨

ـ الحسينى غرق .

قال أخى ممدوح ، كررها مرة ثانيـة ، ومضى .

تلقيت الخبر ببرود شديد ، اشعلت سيجارة ، اطلقت نفثـة الدخـان ، وذهبت الى دورة الميـاه ، تخلصت من أوساخى ، اغتسلت ، وغيرت ملابسى دون معاونة من احد ، فالجميع هرولوا الى هناك .

هجرت عائلتنا بيوتها ، الكبار والصغار ، رجالا كانوا أو نسـاء ، الى الشط نرقب الميـاه ، وتتـابع الموج ، موجة وراء موجة ، وانـا بداخلى يقين : أن الحسينى لم يغرق ، وسوف يخرج بين لحظة وأخرى ، من مخبئه ، وهو يضع كفيه على وسطه ، ويطلق ضحكته المجلجلة ، الى أن أصيبت اختى امال ، بأول نوبة صرع ، فى حياتها ، حين لمحت قمة رأسه ، طافية ، لحظة ، على الماء ، واختفت .

ولمـا جاء الغواصـون ، قرب حـلول المغرب ، أشـارت لهم بسبابتها ، وقالت : هنا .

فألقوا بأنفسهم تحت المـــاء ، ســـاعات وســـاعات ، وهم يستبدلون أنابيب الهواء • وعائلتنا تقف على أظافر أقدامهـــا ، ترمق المياه بغيظ وكراهية ، أسفل شجر الطريق ، الذى طالمـــا رأى جولاتنا ، فى ليالى الصيف المقمرة ، يأتى بشبكة الصيد ، وأجىء ببندقية الصـــيد ، له البلطى والبيـــاض ، ولى اليمـــام والعصافير ، كان يحب البحر ، وأحب الفضا •

وعندما تغيب بيوت بهتيم ومسطرد ، خلف ظهورنا ، تنحدر من طريق مصر الاسماعيلية الزراعى ، الى شط « الحلوة » ، حيث الحشائش المنداة ، ونقنقة الضفادع ،وانسياب الميـــاه •

يخلع الحسينى ملابسه ، يكومها تحت حجر كبير ، ويخرج شبكة الصيد من القفة ، يطوحها ، ويرمى بصره ، يلاحقها ، حيث يجرفها التيار ، يجرى بموازاتها على الشـط ، وهو يمسك بطرفها فى قبضته ، الى أن تستقر فى القاع ، ينتظر عليها بعض الوقت ، ثم يسحبها محملة بالقواقع والأسماك تتلوى وتتقافز •

ولمـــا يشقشق النهـــار ، يلقى بجســـده ، فى « الحلوة » ويغطس ، ثم يطل برأسه هناك ، بعيدا عن الشط ، بين الموج ، وتحت ضباب الفجر ، يلوح لنا بيديه ، ويصيح بأسمائنا :

ــ يا عيسى ، يا عنتر ، يا كمال ، يا رجب •

ــ ارجع يا حسينى •

ـ الجدع منكم يأتينى هنا •

ويعوم فى مكانه ، كالبط والكلاب والضفادع ، يرشنا بالمياه ، وينام على ظهره ، يسبح مع التيار ، ثم ينقلب على وجهه يشق الموج بصدره ، ويضرب الماء بذراعيه ، ويظل يبتعد ، وحجمه يصغر ، الى أن يختفى تماما عن أبصارنا •

وفجأة ، نراه ، فوق رءوسنا ، مبللا بالماء ، يحوم حول الحفرة ، التى حفرناها ، وبنينا بها بيتا للنار ، لنشوى السمك ، يجفف جسده بأشعة شمس الصباح ، ونأكل ، حتى تمتلىء بطوننا ، ونستلقى على العشب ، يهز البندقية بجوارى ، ويقول :

ـ اليمام والعصافير على الشجر ، عليك الغدا •

ولما نزح الحسينى من دمهوج ، الى بهتيم ، فى الثالثة عشرة من عمره ، لبد بجوار الراديو ، يومين متصلين ، يدير المؤشر يمينا ويسارا ، ثم قال : هات لى محمد طه •

قلت : لا يذيعون محمد طه الا نادرا •

حمل الراديو ، بهدوء ، الى أعلى ، وتركه ، يسقط على الأرض مهشما •

انفجرنا فى الضحك ، ولم يكن أمام أمى الا أن تصفر وتخضر وتحمر ، وتضرب كفا بكف ، وترسل لأبى فى الفرن ، وتقول :

ـ ليس له مكان بيننا ، خذه الفرن .

قال أبى فى صرامة : له البيت والفرن وأولاد عمه .

وفى اليوم التالى ، شغله فى محـلات البقالة ، مع أخى الكبير ، الذى شج رأسه بماسورة حديد ، فسال دمه قنطارا . طرد أبى أخى الكبير من البيت سنة متصلة .

وقال : سوف أفتح له دكانا ، وأزوجه آمال .

من ثمانيـة أيام ، عندما عـدت من أربعين أبى ، أتانى الحسينى على دراجة ، خلف كشك سعيد محمود ، رمى نفسه فى حضنى ، وبكى ، وعرى جسده ، وقال :

ـ عمى مدكور ، يضربنى هذه الأيام ، كثيرا .

لم أرد عليه .

قـال : هو يعرف اننى معكم .

قلت : لمـاذا لم تحضر جنازة أبى .

قـال : يريد أن أترك الفرن لزوج ابنته .

قلت : كنت فى حاجة اليك هناك .

قـال : ترك لكم كل شىء .

وانصرف .

قال زقلط ألفران : حاولت أن أمنعه ، كان متعبا ، ظل يعمل ، بمفرده ، طول الليل ، ونصف النهــار ، أمام الفرن ، لكنه أصر ، اندفع على غير عادته ، يسبح ضد التيار ، وعبر للبر الثــانى بســلام ، أشــار لنا بيده من هنــاك ، ثم غاص بضعة أمتار ، وعام مع التيار ، قلنا :

ــ عاد اليه هدوؤه •

وفى منتصف « الحلوة » كان يرفع ذراعيــه بصعوبة ، ويغطس ، ثم يطفو ، ويغطس ، ويطرطش المياه ، ويصيح بأعلى صــوته :

ــ الحقنى يا زقلط ، الحقونا يا ناس •

اعتقدنا أنه يمزح ، الى أن غاب تماما تحت المــاء •

نفذت أنابيب الهواء ، وطلع الغواصــون من المــاء ، وما معهم الا قطعة الملابس الوحيدة ، التى كان يرتديها ، خلعوا جلودهم ، وحزموا حقائبهم ، وقال رئيسهم :

ــ الجثة جرفها التيار •

فانصرفنا •

الغراب والكلب

نشرت في الثقافة الجديدة ١٩٨٦

مطرود ذليل مهان ، غادر زينهم الفرن ، مضطرب ومشوش الذهن ، يشعر بالاختناق ، ينزف حزنا وخجلا ومرارة ، تترسب فى حلقه ، وتكاد تسد منافذ الهواء عن رئتيه ، تتردد فى رأسه الكلمات التى هوت ، بمثابة صفعة قوية ، شملته برعدة ورجفة :

ـ الفجر ادن يا عبد ، قوم بقى هوينا .

عندما مال صبرى العجان عليه ، رماه بنظرة غاضبة ، وكانت حادة وزافذة . وقال : مش عيب كده يا عبد ، دلوقت المعلم يبيع ويشترى فينا .

تلعثم وثاثا كالعيال أثناء بحثه عن كلمات مناسبة ، فلم يجد ما ينطق به ، دفس بصره فى الأرض ، ولم يرد .

تلاحقه نظرات الخبازين باللوم والتأنيب والشفقة والغيظ الذى يكاد يفترسه ويفتك به ، وهو ينحدر بقدمين حائرتين متعثرتين . يهبط مرتفع عطفة الدراويش ، وموجة برد ثقيلة ،

تندفع فى أحشائه ، تقلصها وتلويها ، يتحسس ربع الجنيه ، الذى ضل طريقه الى « سيالة » الجلابية ، يتحداه ، يسخر منه ، ومن كبريائه ، الذى أبى ، وهو يكاد ينفجر فى بكاء حاد ، أن يأخذه من صاحب الفرن ، أول الأمر ، وهو يحدث نفسه : فاكره يامه ، كنت دايما تقوليلى : البندر خيره كتير يا زينهم .

كان زينهم يدور فى الفرن ، يلقى نظرة هنا ، ونظرة هنالك ، يتفحص الزان بين أيدى الخبازين ، والمكن خلفهم ، وألسنة النار تطول وتقصر ، فى بيت النار ، فأشار له صاحب الفرن من وراء مكتبه ، عندما خلع الجلابية التركلين البيضاء ، وهم يتناول ملابس العمل ، من كيس الفاكهة ، وهو يقول لنفسه : استعنا على الشقا بالله .

ثم سار الى صاحب الفرن ، متوجسا مرتابا ، يقول لنفسه : لو كان المعلم يرضى يشغلنى على طول ، كان الواحد يلاقى نومه كويسة ومريحة ، بدل النوم فى الشوارع والقهاوى والجناين .

تلقفه الشارع الكبير ببرودته ، وصمته ، ونسماته المرتعشة ، وأعمدة الكهرباء ، وضوء النهار ، الذى لايزال يتسلل ببطء ، من ظلمة السماء ، وكان مبللا بندى الصباح ، خاويا ، الا من زجاجات فارغة ، أعواد ثقاب ، أوراق جرايد مطوية ، أعقاب سجاير ، قشر موز وبرتقال ، طبق صاج

قديم ، مصاصة قصب ، اطار دراجة صدىء ، عربات يد محملة بأقفاص خاوية ، شخصية سياسـية بارزة على غلاف مجلة ، بجوار صورة نصف عارية ، لفنانة صاعدة ، تشق طريقها الى القمة ، جرو صغير ينتقل خلف أمه ، بين النفايات وبقايا الطعام . سيارات قليلة متباعدة ، أقدام رجال يتباعدون ، ثمـة مقهى ، وبعض المطاعم ــ هناك ــ يخرجون أحشاءهم على الرصيف .

أحكم زينهم لف « التلفيعة » ، حول رقبته ، أخرج بيده المرتعشة ،سيجارة من جيبه ، أشعلها ، وأطلق نفثة الدخـان ، وتأمل تلك المدينة الكبيرة ، ورمى نظرة أخيرة على الفرن ، وكان لايزال يشعر بوطأة الكلمات جاثمة على صدره :

ــ الفجر ادن يا عبد ، قوم بقى هوينا .

كان واقفا أمام صاحب الفرن ، يرهف السمع الى كلمات الأغنية ، التى كانت تأتيـه ، مهشمـة الحروف ، والمعـانى ، والألفاظ ، يتأمل تنيجة الحائط والآية القرآنية ، المعلقتين ، أسفل صورة رجل ملتح ، يستند على عصاية غليظة ، ف برواز مزخرف كبير ، خلف صاحب الفرن ، الذى لم أطراف تشعثه ، ونهض من كرسيه ، يزيح الطاقية عند مؤخرة رأسـه ، ابتسـم ، وأخذ زينهم تحت ابطه ، وسار به بعيدا عن عيون الصنايعية ، ربت على كتفه ، وقد فارقته الربكة والحيرة ، التى كانت تعلو وجهـه ، وتضرج كلماته بالتلعثم والتعثر ، وقال :

ـ تشرب شاى يا عبد ال.

ـ ربنا يجعله عامر يا معلم .

ـ اللا انت اسمك ايه يا عبد .

ـ خدامك زينهم يا معلم .

ـ مرة تانية يكون لينا نصيب عندنا .

ـ أنا جاى من القهوة أشتغل يا معلم .

ـ أعمل ايه يابنى ؛ الراجل بتاعنا جه .

ـ طب أشوف شغل ازاى دلوقت .

ـ ارجع القهوة ، والمواصلات على حسابى .

ـ الدنيا ليلت وعلى ما ارجع تكون سكت .

ـ أفرشلك شوالين ، ونام فى البورة ، لحد النهار ما يطلع .

سار على الأسفلت ، قلقا ، منوترا ، كسيرا ، محطما ، يقول لنفسه : زمان كان لينا دار ، صحيح كانت بالطين ، لكن دار ، بس وقعت ، اتهدت وبقت كوم تراب .

يلفه الصمت ، وشظايا النهار ، تداهمه تفاصيل حلم ظل يقتحمه ، كلما غفا أو أغمض عينيه ، على هيئة ثيران من النار ،

متأججة ومتوهجـة ، طويلة اللسان والذراعين ، تحـاصره ، تركض حوله ، تطارده ، تلاحقه ، تجثم على أنفاسـه ، تخنقـه بالدخان والرماد والهشيم •

عندما أشار له صاحب الفرن ، ناحية المخزن المعتم ، ذهب زينهم الى هنـاك ، وعاد بشوالين فارغين ، فرشهما تحت أقدام زملائه ، وتمدد متوسدا ذراعيه ، طول الليل ، يحـاول أن يجلب النوم ، الذى يجىء على فترات قصيرة ، قليلة ، ومتباعدة ، تطالعه سخرية زمـلائه وتهكمهم عليه ، وهم يلقون فى وجهـه النظرات الشرسـة ، والابتسامات والتعليقـات المريرة ، التى تخترق رأسه ، حادة عنيفة وجارحة •

ـ هو مافيش رصيف فاضى يا عبد !!

ـ هما بتوع القهوة دول كده • !!

ـ الواحد هناك تشوفه ولا أبو زيد الهلالى !!

ـ تلاقى الحمامات اللى فى البلد خلصت !!

ـ يا با دول عالم صيع !!

ـ لزومه ايه يشمتوا فينا المعلمين !!

ـ ياعم دى النومه فى الاقسام احلى !!

يحاول الفرار من عيونهم ، التى ترجفه ، تربكه ، توتره ،

تؤلمـه ، تطير النوم من عيونه ، توقد بداخله احساسا بالجبن والغبـاء والتفاهة ، تضرم النيران فى جسـده ، الذى ينكمش ويتضاءل : وهو يقول لنفسه : لو كانوا يتكلموا معايا ، لو كانوا يسألونى ، ياخوانا ، الدنيـا برد قوى ، أنا برضـه زميلكم ، وزى أخوكم ، واحنا فى شهر طوبة ، وجسمى مبستحملش النوم الليلادى فى الشوارع •

مال زينهم ، دون أن يدرى ، وبلا أدنى ارادة ، كانت قدماه تقودانه الى الجرو ، وكان ضعيفا نحيلا وهزيلا ، يداعبـه : يربت على ظهره ، ويقول لنفسه : اروح القهوة ، اشرب كباية شاى ، يمكن تدفينى ، وتخلصنى من البرد اللى جوايا •

وحمل الجرو بين ذراعيه ، يضمه الى صـدره ، وسـار يتسمع وقع خطواته على الطريق •

الأســـوار

نشرت فى القاهرة ١٩٨٧

خرج عواد من أمام نار الفرن ، يتنفس الصعداء ، نشف عرقه فى مزقة ملوثة ، خلع سنافه الخشبية ، وتنهد ، وقعد على الأرض بجوارها .

((آه اربع وعشرون ساعة عمل يهدون الجبال)) .

ينظفها من آثار الدقيق والنخالة وهباب الفرن ، وعرى بقايا فخذه الأيسر للهواء .

كان عواد ـ حينذاك ـ صبيا ، يقود الدراجة ، بخفة ومهارة ، وهو يحمل الخبز فوق رأسه ، فى الحوارى ، وبين السيارات والتراموايات .

وذات يوم ، وكان متعبا ، لم ينم جيدا ، ظل قلقا طوال الليل ، فى مخزن الفرن ، يخشى ـ وقلبه حمامة فزعت ـ مصطفى الخراط الذى يحتك به ، ويحاول الالتصاق بمؤخرته .

انتبه ، بعد غيبوبة طويلة ، فى المستشفى ، وقد فقد ساقه اليسرى ، تحت عجلات ترام السيدة .

الله يلعنك يا أمى ، كنت بمفردى مستريحا ، أعمل على قدر جهدى ، وما يسكت معدتى ، لقد جربت النســاء والزواج مرة سابقــة ، شفت النجوم فى عز الظهــر .

كان عواد قد عاود بلدته ، كعادته أيام الأعياد ، بأكياس الرمان والعنب وأمتار القماش الرخيصة ، وبين رشفات الشاى وطقطقة خشب الكانون :

ــ انت كبرت يا عواد ، تزوج يا ابنى واحدة تخدمك فى الغربــة .

كانت شادية حلوة ، طيبة ، ورقيقة ، لمــا تمتلىء غرفتهــا بالزيت والطعام ، وعندما تفرغ جيوبى ، تتعــارك ، تشــتم ، وتسب الدين ، فضحتنى يا أمى وعرتنى ، كانت تمشى فى حوارى قلعة الكبش ، تقول لمن تعرفه ، ومن تجهله :

ــ عواد مجوعنى ، عواد معرينى .

طلعت بنت كلب تقتل أولادها .

ــ نفسى فى ولد أو بنت يا شادية .

ــ كفاية فقر يا عواد .

لكن آخر مرة شرط عليها :

ــ لو الجنين نزل : حد الله بينى وبينك .

صحيح ، انتظرت بعض الوقت ، لما بطنها لفت ، ولعب الجنين فى أحشائها ، وسقطت .

صممت أبلغ النيابة . ظلت تبكى ، وتحلف بأيمانات الله العظيم :

ــ ليس ذنبى هذه المرة يا عواد .

صعبت على ، طلقتها ، وارتحت .

وعلى صوت المزمار ، وضرب الصاجات ، ودق الطبول والدفوف ، خاض عواد فى مسالك ودروب اللذة والمتعة ليالى وليالى .

وجاء يوم الرحيل ..

قالت أمه : محمود أخوك يا عواد ، خذ بالك منه ، علمه أشغال الفرن ، يعيننا على هذه الأيام السوداء .

همست فردوس : هى غرفة وحيدة يا عواد .

ــ يعيننا الله يا فردوس .

أغمض عواد عينيه ، ورأى فردوس ، لها عيون كالشراع ، وصدر كالسفينة .

ـ ليلة من ليالى البلد يا فردوس •

ـ محمود رجل يرى ويسمع ويحس يا عواد •

تسلل رجب « السحلجى » ، بخفة ورشاقة ، على أطراف أصابعه ، ثم قفز ، ولسع شحاتة « الطولجى » ، صفعة قوية على قفاه ، وهرول مراوغا ، يضحك ، ويتلفت وراءه ، تلاحقه شتائم « الطواجى » ، وجلجلة ضحكات الفرانين •

سحب العـدوى الخبز من الفرن ، ثم بصـق وأتى الى « الزلاقة » ، يجفف عرقه ، ويرفع ذيل جلبابه بين أسـنانه ، فبانت عورته ، وهو يركض خلف رجب « السحلجى » ، الذى فر الى الشارع ، أثناء دخول صباح التى فوجئت ، توقفت ملعقة الشاى بين أصابعها ، وأدارت ظهرها مرتبكة ، فعاد العدوى ، وقـال :

ـ غط العجين « يا عبد » ، ولا تحزن ، كلنا فى الأول هـكذا •

قالت صباح : يا جدع خل عندك دم •

أنزل العدوى ذيل جلبابه ، وقال :

ـ بالحلال ، والنبى يا صباح ، بالحلال •

ـ لم يبق الا أنت يا كناس الأفران يا مقمل •

كان عواد فى العاشرة ، عندما ودعه أبوه ، وبصره يتابع قضبان السكة الحديد .

ـ تنزل فى شبرا الخيمة ، تسأل عن فرن حسين « الدمهوجى » ، ألف من يدلك عليه .

جبتها من الشرق للغرب ، ومن بحرى للصعيد يا عواد .، اشتغلت عند كل معلمين البلد ، فى القرى والمداين ، فى مصر والجيزة والقليوبية ، رحت الشرقية والغربية والدقهلية ، عشت هناك جنب البحر فى اسكندرية ، وفى مدن القناة ، شفت حروب ياما ، وناس ياما ، من كل ملة وكل جنس ، لكنك دائما ما تحن الى هنا يا عواد ، أين وجدت ، تترك ما فى يدك ، وتأتى الى صاحب الفرن .

ـ الحساب يا معلم .

ـ أنت معنا يا عواد .

حكمت أسافر اليوم يا معلم .

وتطالعه بهتيم ، بحواريها الضيقة ، الملتوية ، يمضى رأسا الى غرزة فؤاد الأعور .

ـ ربع قرش وسنة أفيون يا عم فؤاد .

وتغنى كوكب الشرق ، تلعب برأسه الحجارة والكئوس ، الى أن تدق فى الراديو ، ساعة ما بين اليوم واليوم ، يشد آخر

أنفاس الجوزة ، ويطلق نفثة الدخان الأخيرة ، يرمى بقايا زجاجة الروم الأحمر فى جوفه ، يركب ساقه الخشبية ، وينهض ، يسير الى فرن حسنين « الدمهوجى » ، يتبادل والصنايعية تحية المساء ، وكأنه لم يفارقهم لحظـــة . ثم يدخـــل مخزن الفرن ، يفرش الأجولة الفارغة ، يتوسد ساقه الخشبية ، وينام .

عندما تعلم عواد الخبيز حديثا ، كان بطيئا لا يستطيع تحريك وسطه بسهولة .

ــ هذه شغلة متعبة يا عواد .

ــ أنا أعفى منكم يا غجر .

وكانوا يسرقون ، وهو نائم ، ساقه ، يخبئونها تحت مكتب صاحب الفرن ، ولمـــا ينهض ، يتلفت حواليـــه ، يقفز بساقـــه الوحيدة ، يقلب الفرن رأسا على عقب ، ثم يقف فى « الزلاقة » وقد فاض منه الكيل .

ــ رجلى يا أولاد الكلب .

ينفجرون فى ضحك طويل ومتصل .

العـــائلة

نشرت فى ٤٨ - ١٩٨٩

الى تلك النفس المحلقـــة والمسيطرة

الى حســـين الحسينى

اليــك يا أبــى

هذه المدينة صارت ضيقة وقبيحة ، دخان المصانع ، وابواق السيارات ونداءات الباعة الجائلين ، وضجيج الورش والمقاهى والمطاعم والزحام ، والطرق المتربة والغبار والبيوت التى تركب انفاسى ، والحوارى شرايين مكدسة بالقمامة ونفايات البشر ورائحة العرق وحصار صهد الصيف .

وكنت أتطلع من شرفة بيتنا ، على مدد الشوف ، الى بقعة ظل أو خضرة ، التنفس .. التنفس .. شجرة واحدة يا الله .

كان أمام بيتنا وحواليه ، حديقة للبرتقال والليمون والجوافة والعنب والزهور ، زهور حمراء وصفراء وبيضاء ، وكنت أعشق الجلوس فى الشرفة ، عندما يكون الربيع مكتملا ، والنهار ينبلج ، والأوراق الخضراء مبتلة بالندى ، والشمس وردتنا تصعد الأفق .

وكان ابى فى الليالى القمرية ، يأخذنا ، نتسلق

الشجر ، ونقطف الثمـار ، نأتى ، نتجمع حواليه ، وهو يوزع أنصبة أبناء عمومتى وخالتى والأصدقاء والجيران ، نحملها اليهم فى سـلال صغيرة ، نعود بها ممتلئة ، بالخضـار والبيض والجبن والزبد واللبن .

وكنت أختار من الفواكه الليمون ، فأنا أحب الليمون ، وأمضى أتمدد بمفردى على العشب ، تحت شجرة كثيفة ، أطوح الليمون الى أعلى ، ثم أتلقفه بيدى ، على ضوء القمر ، الذى يتسلل عبر الغصـون والأوراق . ورويدا ، أنزع القشر عن ليمونة وراء الأخرى ، أديرها بين شفتى ، وأتحسسها بلسـانى ، الى أن تطرى ، أمص وأمص ، حتى تبتل ملابسى ويهب النسيم .

وذات خريف ، والأشـجار عارية ، وكان أبى ميتا منذ شهور ، على أثر هزيمة يونيو ، جاء نفر من الرجـال ، ظلوا يعملون بالمناشير الكبيرة والبلط ، الى أن اجتثوها ، ووقف بيتنا القديم هـذا عاريا ، تتآكل جدرانه وتتشقق ، وتبهت ألوانه ، وكان فى ما مضى ، جميلا وشامخا ومهيبا ، تدب الحيـاة فى كل جنباته ، أثناء النهار والليل ، فأنا لى أربعة أعمـام ، كان جدى يتأملهم بزهو وفرح ، انتحر كبيرهم عبد العال ، عاد ، ذات ظهيرة ، على ظهر الحصـان ، من جولته فى أملاك جدى ، التى كانت سـوف تباع لبنك الخواجات ، فى مزاد علنى ، صباح غد ، بعد أن آكل من غيطان أبيه ، عشرين رطلا من الطماطم ،

وعشرة أرطال قثة ، وعشرة أرطال خيار ، وذبح بمطواته ــ قرن الغزال ــ دجاجتين وحمامتين وأوزة وذكر بط وعنزة ، أتى عليهم حتى العظــام ، وتوارى وحيدا فى احدى الغرف ، وعندما دخلت جدتى عليه ، كان لسانه يتدلى ، وعيناه جاحظتان ، وجســده تطوحه رياح حزينة وغاضبة .

يومها كان أبى يساق مكبلا بالحديد الى السجن ، بعد أن باغت الخواجة ، وطعنه بخنجر جديد ، طعنات نافذة ومتتالية ، أردته قتيلا ، وظل أربع سنوات هنــاك ، يكسر الحجارة فى الجبل ، وفى الليل يتكوم بين جدرانه .

اما الثانى أحمد ، مات وراء أبى بشهور قليلة ، وكان فرانا ماهرا ، والوحيد من أبناء جدى الذى يفك الخط ويقرأ الجورنال ، وقد عهد أبى اليه ، دون اخوته ، فهو أكثرهم خبرة بالمهنة وأهل المهنة ، بادارة أهم مخابزه ، بوغت به أبى ، ذات مساء ليلة شــتوية ، متورم القدمين ، فى مقهى الصنايعيــة ، بباب الشعرية ، وقال :

ــ أنا جعان وعطشان يا مندور .

فظلا رفيقين ، وجابا معا أرجاء القطر ، من أقصــاه الى أقصاه ، بحثا عن القوت والعمــل ، تزوج امرأتين ، ولم ينجب الا طفلا ، نزل من فرج أمه ، ميتا ، وكان أكثر أبنــاء جدى طولا

ونحافة ، لكنه محدودب الظهر ، من كثرة الانحناء أمام الفرن ، وكثيرا ما كان يهجر الفرن ، ويأتى فى ليالى الصيف ، حديقة بيتنا ، ينام تحت الشجر ، ويأكل من ثمراته ، ويتغوط خلف جذوعه ، ودائما ما قال أبى :

ــ دعوه وشأنه .

فقد مزق عقدا للمشاركة فى كل أملاكنا ، قدمه اليه أبى ، وقال :

ــ يا مندور ، أنا لا أريد أن أكون مالكا ، الا لنفسى .

وقد فوجئت به صباح ٥ يونيو ، يوقظنى من نومى ، وقال :

ــ هات الخريطة .

أتيت له بها .

قال وهو يشير بيده : من هنا تهجم جيوش مصر ، ومن هنا تهجم جيوش سوريا ، ومن هنا تهجم جيوش الأردن ، نحن نحاصرهم وسوف نحرر فلسطين .

ولما سمع خطاب التنحى ، لم يذهب الى قصر القبة ، كغيره ، بل بحث عن أقرب بار ، ولم يغادره الا يوم جنازة أبى ، التى عاد منها الى حديقة بيتنا ، وظل بها ، يأكل ، وينام ،

ويتغوط ، الى أن وجدناه ، ذات صباح ، ميتا بين فروع شجرة برتقال كبيرة . والثالث من أبنـاء جـدى محمود ، لونه بنى محروق ، كان جدى يناديه .

ــ يا عبد .

ــ وهو من بعده ينادى احدى بناته :

ــ يا جارية .

ولمـا ضاعت ما بين الحربين الكبيرتين أملاك جدى ، آبى ، دون اخوته أن يهجر دمهوج ، موضـع رأسه ، وعمل فلاحا من طلعة الشمس لغروبها ، فى غيطان الآخرين ، وعندما يندر العمل ، وتضيق الدنيا ، وتطول به العقدة ، يسب الدنيا والدين ، ويتسلل فى أنصـاف الليالى ، يسرق الدجاج والبط ، ان لم يتمكن من الحمير ، التى يلونها ويبيعها فى الأسواق البعيدة ، ثم يعود الى جدى ، ويقول :

ــ خذ يا آبى ، نحن خيرنا عليهم جميعا .

ويغيب بضعة أيام ، ليظهر فجأة ، ويقول :

ــ التفاهم مع الأموات أفضل كثيرا من هؤلاء .

ويشير بيده الى دور القرية ، ويصمت ، يصـوم عن الكلام مع البشر ، بضعة أيام ، لا يفتح خلالها فمه ، ولا يحرك لسانه ،

الا لازدراد الطعـام ، وشرب المياه ، وتدخين الجوزة ، ورشف الشاى الأسود ، تزوج امرأة ، فظة غليظة القلب ، أنجب منهـا ثلاثة أولاد وبنتين ، غرق كبيرهم فى ترعة الاسماعيلية ، يـوم أربعين أبى ، ولمـا فتح الله على أبى بالمخـابز والمحلات ، وحاز الأرض والحديقة والبيوت والسيارات النقل والأجرة والملاكى، ولاه الأرض ، رفض ، اشترت له أمى وزوجـات أعمـامى ، ثلاث بقرات وجاموسة ، باعهم فى سوق الخميس ، وقال :

ـ البهايم ماتت .

أعطاه أبى فدانا ، وقال :

ـ هـذا لك .

بنى به خصا ، وأقام هناك الليل والنهار ، الى أن جاء عمى الرابع ، لبناء بيت مكان دار جدى التى تهدمت ، اختفى يومين ، ثم عاد من القبور ، طرد الحفارين والبنائين ، وقال :

ـ أبى لم يوافق على بناء الدار .

قطع أبى عنه المرتب ستة شهور ، وذهب اليه ، وقال :

ـ هات لنا أباك ، يقول لنا ذلك .

وشيد عمى الرابع بيتا لنا وله ، بالطوب الأحمر والخرسانة، ودارا لعمى محمود بالطين والقش .

اذا رأيت أحدا ينحنى على الأرض ، ليلتقط مسمارا أو صامولة أو حديدة صدئة أو قطعة خشب متآكلة ، فهو بالتأكيد عمى الرابع ، شريك أبى فى أملاكه ، الذى أراد أن يتزوج أمى ، بعد وفاة أبى ، ولما رفضت ، قال :

ـ أنتم فى طريق ، وأنا فى طريق .

دائما ما قال جدى عنه : مدكور براوى لا يحب أهله .

الوحيد من أبناء جدى ، الذى كان قبل وفاة أبى ، يحب الاستحمام والعطور والوقوف فترات طويلة أمام المرآة ، وارتداء الثياب الفاخرة ، وأكل المانجو ، وهو دون اخوته ، الذى دخل الجيش ، أثناء الاحتلال البريطانى ، رأته زوجة قائد المعسكر ، أبيض البشرة ، ملون العينين ، وقوى البنيان ، فتنت به ، واختارته للقيام بأعمال البيت ، وحراسته من هجمات الفدائيين ، وهناك ، خالط الانجليز والفرنساويين والطليان واليونانيين ، وظل طوال مدة الجيش ، على سرير القائد ، وفى أحضان زوجته ، يتعلم الرقص وسماع الموسيقى والغناء ، ويتمتع معها ، فى غياب القائد ، بفنون الجنس والهوى ، وظلت تأتيه بعد خروجه من الجيش ، حيث هو ، فى دمهوج أو قليوب أو بهتيم ، الى أن رحلت بعد عدوان ١٩٥٦ ، لكنهما للآن لازالت تتبادل معه الرسائل .

ولما خرج أصابته « حصوة » فى الكلى ، جعلته يجأر كحيوان جريح ، فى ليالى الشتاء الطويلة ، فشق الطبيب بطنه ، نظفها ، وقال :

ــ تلزمه الراحة الدائمة ، والا عاوده المرض كل بضعة شهور .

تزوج امرأة ، قصيرة ، شديدة الدهاء ، أنجب منها أربعة صبيان وبنتين ، ولما أهدانا أحد كبار المسئولين بالدولة تليفزيونا ، قبل أن يدخل التليفزيون مصر ، استأثر به ، أوثقه أبى بالحبال ، وجره الى مدافن بهتيم ، وقال :

ــ انه للجميع ، والا دفنتك حيا .

وشاء السرطان أن يحمل هو جثة أبى ، فى جنازة مهيبة الى القبور ، وحين عاد ، فوجئت به ، يصفعنى على وجهى ، ويرفسنى بقدمه ، حتى جرح رئتى ، وكسر أحد ضلوعى ، وأقعدنى على هذه الدراجة لا أتحرك .

الفهرس

رقم الايداع ٧٠٥٧/ ١٩٩٠

الترقيم الدولى 8 — 2528 — 01 — I.S.B.N. 977

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

ينتمى هذا الكتاب القصصى إلى ذلك النوع من الكتابة ، الذى بات معبرا عن الهموم الحقيقية ، والآمال الكبيرة للمجتمع المصرى ، فالقصص تعكس هموما إنسانية عميقة ، تشكل هواجس اولئك الذين يحلمون بالتغيير ، والوصول إلى عالم أفضل .

ويتبقى لهذه المجموعة القصصية أيضا انها تحاول البحث عن طرائق جديدة للكتابة ، تخرج عن إطار المألوف والمعتاد فى السرد القصصى المعاصر ، مما يضفى عليها قيمة فنية تستدعى التوقف والانتباه .

١٢٠ قرشـــا

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب